# الحياة الأدبية في الحجاز

للأستاذ ابراهيم هاشم فلالى

من المؤلم ألا يجد القارئ الحجازى فى صحيفة « الرسالة » الغراء شيئاً عن أدب بلاده ، بينما هو يجد فى هذه المجلة الكريمة آداب الأمم العربية ممثلة فيها

فهل هذا القصور ناشىء عن الرسالة ؟ أو هو ناشىء عن الأدباء الحجازيين الذين لا يتقدمون بإنتاجهم الأدبى إليها ؟ إنك تجد من الأدباء الحجازيين من يقول لك إن الرسالة ضنت بنشر ما قدمناه لها ، وقد يقول الرسالة إنها لا تضن بنشر كل ما يصل إليها من أى قطر إذا رأته صالحاً للنشر . والذى أراه أن الرسالة أصبحت لها من المكانة فى قلوب أبناء البلاد العربية ما تغبط عليه ، لأنها ما زالت تخدم فكرة العروبة ولغة العروبة ، حتى ظن أبناء العروبة فى شتى بلادهم أنها رسالتهم ، فهى قمينة بأن يكتب لها الكاتبون وهم قمينون بأن تنشر لهم كل ما يكتبون ، فكثرت لديها المواد ، حتى أصبحت صفحاتها لا تسع كل ما يطلب منها نشره ، وعلى الأخص بعد أن استحكمت أزمة الورق وتضاءل حجمها حتى أصبحت فى الحجم الذى هى فيه الآن ، ولم يبق لرئيسها إلا أن يتخير من المواد المتجمعة لديه ما هو أخلق بالنشر من غيره . وله الحق فى أن يختار ما يشاء ويهمل ما يشاء ، وقد تضطره ظروف العمل إلى ذلك ، فيرى الذين لم يقدر لإنتاجهم النشر أن لا باعث لهم على الكتابة للرسالة ما دام نصيبهم الإهمال — كما يخيل إليهم — وغالبية الأدباء ، كما بلوتهم ، لهم مزاج لا يقوى على الاحتمال ، ويتأثرون لأوهى الأسباب .

فى الحجاز حركة أدبية طيبة ، وقد كانت هذه الحركة تتمثل فى جريدتى أم القرى وصوت الحجاز بمكة المكرمة ، وفى جريدة المدينة ومجلة المنهل فى المدينة المنورة . وانتشر الروح الأدبى بين الناس ، فبرز بيننا أدباء جديرون بالإعجاب والتقدير ، ووجدت هذه الحركة عطفاً وتشجيعاً من حكومتنا السنية ، فخلقت كثيراً من الأدباء والشعراء فى دواوينها . وكان ولا يزال نائب جلالة الملك المعظم صاحب السمو الملكى الأمير فيصل يرعى الأدباء ويعطف عليهم ويأخذ بأيديهم ، فانتعشت الحركة الأدبية ، وافتتح لها سعادة الشيخ محمد سرور الصبان مدير المالية العام وكبير الأدباء قاعة فى إدارة الإسعاف للمحاضرات الأدبية ليجد فيها كل أديب جواً صالحاً للانتاج الأدبى القيم ، ثم أسس شركة للطبع والنشر لتقوم بنشر مؤلفات الأدباء على نفقتها ، وورد مقر الشركة بمكتبة قيمة ليسهل على الأدباء والمؤلفين مراجعة ما هم فى حاجة إلى مراجعته من الكتب وقتما يشاؤون

وحيال كل هذه المغريات نشطت عزائم الأدباء ، فألقوا المحاضرات ، وكتبوا المقالات ، وألفوا الكتب ، وشغف الناس بالقراءة ، ولفتهم البحوث الأدبية مما دعا إلى مضاعفة الإنتاج الأدبى وإتقانه ومن ثم ألفت كتب جمة فاز بعضها بالنشر مثل كتاب « وحى الصحراء » لمؤلفيه الأستاذ المرحوم عبد القصود والأستاذ عبد الله بلخير ، وكتاب « محاضرات الإسعاف » ، وكتاب « المعرض » للأستاذ الكبير الشيخ محمد سرور الصبان ، وكتاب « أدب الحجاز » له أيضاً ، وكتاب « خواطر مصرحة » للأستاذ محمد حسن عواد ، و « كتابى » للأستاذ أحمد عطار ، وكتاب « محمد بن عبد الوهاب » للعطار أيضاً ، وكتاب « الأدب الفنى » للأستاذ حسن كتبى ، وكتب الأستاذ عبد القدوس الأنصارى وهى : التوأمان ، إصلاحات فى اللغة ، آثار المدينة المنورة ؛ وكتب أخرى لم تحضرنى أسماؤها الآن ، كما طبع بجانب هذه الكتب الأدبية كتب أخرى مدرسية وأخذت حركة الإنتاج الأدبى تنمو وتزدهر . وتبغ لدينا كتاب وأدباء وشعراء سنأتى على نماذج من إنتاجهم ليتبين لقراء الرسالة الكرام إلى أى حد من النضج بلغ الشعر والنثر عندنا

أما المؤلفات الأخرى والتى تكاد تكون قيمتها الأدبية أكبر من قيمة المؤلفات التى طبعت ، فإنها بقيت محفوظة فى مكاتب مؤلفيها ، لأن الحرب — حربها الله — قامت فى هذه الأثناء وحلت ببلادنا أزمة الورق كما حلت فى البلاد الأخرى ، فتوقفت حيال ذلك الحركة الأدبية عن السير فى طريق الذيوع

والانتشار ، ولكن الأدباء لم يقفوا عن الإنتاج ، لأن الفورة الأدبية جياشة فى صدورهم بقوة ، فهم ما زالوا ينظمون وينثرون ويؤلفون ، وهم محتفظون بذلك كله إلى أن يأتى يوم السلم المنظور وتنحل أزمة الورق ، فإذا جاء ذلك اليوم وقد جاء ، فسوف يرى الناس أدباً حجازياً له سمته وله خصائصه ، وسيكون لبلادنا ذات التاريخ المجيد مشاركة أدبية فعالة فى بناء صرح الحضارة الإنسانية ، وستقوم بواجبها وتؤدى رسالتها بما يتناسب ومكانتها الدينية والأدبية فى تاريخها الماضى المجيد

والآن ، سأذكر النماذج الأدبية التى تكلمت عنها آنفاً ، وسأبدأ بنماذج شعرية ليرى القارئ العربى الكريم الشعر الحجازى فى ثوبه الجديد ، وللقارئ أن يحكم له أو عليه بما يستحقه . على ألا يغرب عن باله أننى لم أتخير فى سرد هذه النماذج الشعرية أحسن ما قيل ولا أروع ما نظم ، بل ذكرت ما شاع على الألسن دون أن أتكلف عناء البحث والاختيار

قلت فى معرض كلامى إنه نبغ عندنا شعراء وأدباء جديرون بالإعجاب والتقدير ، وفى مقدمة هؤلاء كبير الأدباء وحامل لوائهم الأستاذ محمد سرور الصبان ، فمن شعره قوله يناجى الليل :

يا ليل صمتك راحة للموجعين أسى وكربا
خففت من آلامهم ووسعتهم رفقاً وحبا
أو ما ترى حدث الزما نأمضهم عسفاً وغلبا؟

يا ليل إن بسم الخلى وسادر لهواً ولعبا
فبجنبه يبكى الشجى وربما لم يأت ذنبا
هذا ينعم باله وأخوه يصلى النار غصبا

يا ليل فارق محدثاً أخبارنا غبا فغبا
فلنا بذلك حاجة إن تقضها فرجت كربا
وابدأ حديثك بالألى عانوا من الآلام وصبا
فعسى بهم تأسو وعل لنا بذلك منه طبا
يا ليل ما للبدر يـ رح فى السما شرقاً وغربا
يبدو فيضحك ساخراً منا وطوراً قد تحبا ...
يعلو على متن السحا ب يسوقها سرباً فسربا
أتراه يعبث كالولي دفليس يخشى بعد عتبا
يا ليل ما شأن الثرا ثة سيرها تيهاً وعجبا
سكرى ترنح عطفها دلا فلا يستطيع خبا
تخذت لها مهد السما ء كرقص فتدب دبا
طرقت إليك بناتها فضممتهن إليك ربا
تلك النجوم المشرقا ت وجوهها بشراً وحبا

وهكذا يمضى — حفظه الله — فى القصيدة على هذا النمط المستعذب حتى يتمها .

ومن الشعراء الذين نفتخر بهم ذلك الشاعر المتصوف الأستاذ حسين سرحان ومن شعره قوله :

أنت والإثم من طباعى وأنت من طينك الكريم
هبطت فى من ذرى ارتقائى يا موجد الروح من عدم

أوقفتنى عند حد نفسى وقد تجاوزت حدها ...
والنفس مرهونة برمسى إذا اقتنى الجزر مدها ...
فكان ما شئت من صراع وزاد ما ذقت من ألم ...
فحية أنت : لا تراعى يا نفسى : فاستقرى الندم

الطين ما زال يحتوينى يرد وثبى إلى الثرى
فشاهت الأرض من قرين وساءت الأرض عنصرا

ردت سموى إلى اتضاع وإن تعلقت بالقمم
ظلت على أمرها المطاع ومانى الخصم والحكم

وشهوة سمها زعاف تشب فى الروح والبدن
مكشوفة ما لها غلاف وإن يكن ما لها ثمن ...

قد استجابت لكل داع وأورت الجسم بالضرم
كأنها فى القطيع راع فإن أبى أمرها انحطم

فى اللحم والعظم والحنايا وفى عروق وفى عصب
تشف عن أخبث الدنايا فإن تعجبت لا عجب

فإنها غاية المساعى ومصدر الكون والأمم
لولاك يا رخوة القناع ما جالت الروح فى نسم

إذا تخيلتنى عظيماً أريتنى أننى سقط
سبحان من ينصر الهشيما ويخرج الحق من غلط

يا خالط الوحل بالشعاع وناقث السم فى اللسم

أقسمت فى العالم الشاع ـــ بين الورى أصدق القسم
بأننا ـ سذج حيارى ـ وسعينا ذاهب هدر
نريد أن نكشف الستارا ـــ كلا : فلن نبلغ الوطر
فإن تعاقب فباقتناع ـــ وإن تجاوزت لا جرم
ما أجدر الكون بالضياع ـــ لولا الذى يبعث الرمم

ومن شعرائنا المتفوقين الأستاذ الكبير محمد حسن عواد وإلى القارئ أقدم نموذجاً من شعره . قال من قصيدة يصف فيها جندى الديموقراطية فى ساحات القتال :

من بليغ العقل ملهمه ـــ عزمه المنطيق لافه
كاسب الإعجاب منتصبا ـــ قلبه الماضى ومخدمه
يكتب التاريخ من دمه ـــ أسطراً والمجد معجمه
يخدم الأوطان ينقذها ـــ من أذاها وهى تخدمه
لكأن الدين دافعه ـــ نحو قربان يقدمه
دعوة القرآن تحفزه ـــ أو هدى الإنجيل يلهمه
فهو فى اللقيا محمده ـــ وهو عيساه ومريمه
أعجبى ياحرب من مرح ـــ لاعب لولا تحمه

ومنها :

يشتهر المجد فى عمل ـــ هائل المغزى يعظمه
حيث موسيقى الخلود إذا ـــ طوحت بالجين تحطمه
والصدى كالصوت صاعقة ـــ والصفوف السود ترجمه
يسأل الأقدار هل يده ـــ تغسل العدوان أودمه
فإذا بالكون ليل أسى ـــ تتهاوى فيه أنجمه
وإذا الأصداء قائلة ـــ قول صدق لا تجمجمه
أيها التاريخ ذا بطل ـــ فعله للخلد مسلمه
هكذا من الحياة على ـــ مسرح الأيام تحكمه
عالم يبدو فيصرعه ـــ عالم بانيه يهدمه

وهذا الشاعر المجلى الأستاذ حمزة شحاتة صنو العواد ومزاحمه على المورد الذى يستقى منه يقول من قصيدة غزلية :

بعد صفو الهوى وطيب الوفاق ـــ عز حتى السلام عند التلاقى
يا معافىً من داء قلبى وحزنى ـــ وسليما من حرقتى واشتياقى
هل تمثلت ثورة اليأس فى وجـــهى وهول الشقاء فى إطراقى
أى سهم به اخترقت فؤادى ـــ حين سددتها إلى أعماقى ؟؟
إذ تهاديت مبدلا نظرة العطـ ـــف بأخرى قليلة الإشراق
مسرعاً فى المسير تنتهب الخطـ ـــو فهل كنت مشفقاً من لحاقى ؟
وتهيأت للسلام ولم تفعل ـــ فأغريت بى فضول الرفاق
هبك أهملت واجبى صلفا منـ ـــك فما ذنب واجب الأخلاق ؟
كنت بالأمس مسعدى فتغير ـــ ت كثيراً فهل سئمت التلاق
واعترى قلبك الملال فأعرضـ ـــت فهلا انتظرت يوم الفراق
لا أداجيك للكرامة معنى ـــ تتجلى فى صحة الميثاق
سطوة الحسن حللت لك ما كان ـــ ن حراماً فافتنّ فى إرهاق
أنت حر والحسن لا يعرف الـ ـــقيد فصادر حريتى وانطلاق
لم يكن باليسير صبرى على عـ ـــفك لو أننى طليق الوثاق

ومن شعرائنا المجيدين الأستاذ أحمد عطار، فمن قوله هذه القصيدة :

يا شقوة نا تكاد تطلقنى ـــ من نيرها أو يخف محملها
ثقيلة ما أطيق وطأتها ـــ مجنونة باليدين معولها
تعبث فى مهجتى عواصفها ـــ ترجمها رجة فتذهلها
وينتهى للجنون محتدها ـــ وفى مراعى السطا تنقلها
وفى فؤادى تشب معركة ـــ ما تنطفى والزمان يشعلها
الحس صال وفى النهى فكر ـــ رعن يذيق المنون أسهلها
لا الليل ليل وأنت نائية ـــ ولا الدرارى يروق أجلها
ولا الأزاهير وهى باسمة ـــ تسبى وعين الجبيب تغفلها
أين الليالى التى نعمت بها ؟ ـــ وأنت عند الصباح بلبلها
أستلهم الوحى منك يا أملى ـــ شعراً وآيات أرتلها
وكفك البضة التى ذخرت ـــ بأنعم لا أنى أقبلها
وألثم الخد منك مشرقة ـــ أزهاره والفنون يشملها
أين سويعاتك التى غبرت ؟ ـــ ففى فؤادى الرحيب معقلها
أين الورود التى عبثت بها ؟ ـــ وكنت بعد القطاف أكفلها
وأين دار الهوى تظللنا ؟ ـــ وأين أفراحها تجللها
أين الأمانى ؟ وأين بارقها ؟ ـــ وأين أضواؤها ؟ ومنهلها ؟
ليت الذى قد يروح يرجعه ـــ أمثل أيامنا ومقبلها
وليت تفنى وذكرها حرق ـــ لما لهذى التى تخيلها
أين وما أين لى بنافعة ـــ إن يتأ عن مهجتى مؤملها

إبراهيم هاشم فلالى